

الشباب العربي والثقافة المزدوجة

مراوحة بين الوافد والمحلي

يسرى بن الهديلي

باحثة تونسية



قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

تقديم عام:

في معرض حديثنا عن الثقافة، افتتاحية تهيي لافتح المعاني وتوالد العلامات، وإذا كان ذلك، فهي به تكون لحظة سوسولوجية أولى، لإيجاد تعريف لثقافة من غير الممكن تعريفها في المطلق، وإذا أمكن فهو غير مفيد، ولعل أقل فائدة هو ذلك الذي ساد وتفرع منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، معتبرا أن الثقافة هي مجموعة المعارف والقابليات والتطبيقات، التي يكتسبها الإنسان كعضو في مجتمع ما. هناك رؤية أحدث، وهي ليست تعريفا ترى الإنسان معلقا في شبكة الدلالات التي ينسجها.

هذه الصورة التي هي من نوع ما استحضره "غيرترز" عن "ماكس فيبر" يمكن أن توجه نوعا من التحليل التأويلي أو التفهيمي للثقافة، إذا ما أمكن للحد من إغراءاتها، وأول الإغراء أن تكون الثقافة للناس جميعا.

ثم إن هذه الصورة الجميلة لعلاقة الإنسان بثقافته عبر الدلالة التي ينتجها فيها، وبها، تبقى صورة مجازية، غير تحليلية، إذا لم تكن مشدودة إلى الواقع الاجتماعي المتغير، باعتبار أن الخطاب الثقافي يحيل إلى هذا الواقع عبر الدلالة التي ينتجها.⁽¹⁾

افتتاحية أردناها، لندرج في إطارها مقاربتنا لموضوع الثقافة ضمن مشروع أوسع، يطرح صيغ تعاطي الشباب العربي مع الثقافة المزدوجة/ الوافدة، والتي ارتبطت خلال مرحلة تاريخية كاملة بصعود القوى الأوروبية وظهور ثقافة مهيمنة، وأخرى مهيمنة عليها.

بين هاتين الصورتين ما يكفي للمغامرة السوسولوجية، ولتصنيف معانيها كلها، أن ترى وراء ما يرى (وهذا مبدأ القراءة)، وأن ترى فيه ما لا يرى (وهذه تقنية) لتجد المعنى حيث لا ينتظر.⁽²⁾

كأن نتحول في معرض حديثنا عن الشباب والثقافة المزدوجة للحديث عن الهوية، والحداثة، والإعلام الاستهلاكي، والشارع كعالم اجتماعي ونص متحرك، متموج يتسع للتناص، وفيه تقاطعات لثقافة واسعة مذهلة بتراميتها وتفرعها، ذات دلالات سوسولوجية بليغة تطرح ما هو أول، تاريخيا، وما هو ثان، هو لعبة التمايز التي تنتج الاختلافات الثقافية لكل تجمع في ظل وضعية ما، ويسمى "توليدا ذلك الرهان القائم بين ثقافات العالم تلك النزاعات والصراعات والتآلفات، والتدافعات، والتداخل، والرفض، وذلك التدافع والتجاذب بين كل ثقافات العالم، هو باختصار امتزاج، ولكنه ذو محصلة لها مدى أبعد وغير قابل للتوقع".⁽³⁾

(1) الطاهر لبيب، عنف الهوية، مجلة المقدمة، عدد 1، الجمعية العربية لعلم الاجتماع تونس، 2009، ص 11

(2) المرجع السابق، ص 13

(3) محسن بو عزيزي، التعبيرات الاحتجاجية والمجال الاجتماعي، الدار العربية للكتاب، تونس 2009، ص 33

ومن هذه الوجهة، فإن الشباب يتجاوز حدود الفئة العمرية، ليصبح وضعية اجتماعية متأثرة بعدم الإثبات الاجتماعي وبعدم النضج الناجم عن طول مدة الدراسة، وتأخر سن الانفصال عن العائلة، وطول أمد البطالة أو الشغل الوقتي، وهي كلها أوضاع أصبحت قارة ومنتشرة، رغم وجود نزعة لدى المشرع لخلق سن مفصلية، وذلك بتخفيض سن المسؤولية والرشد والمدني.⁽⁵⁾

من هذا المنطلق، يبرز الحديث عن مفهوم ثقافة الشباب، باعتباره من المفاهيم الكلاسيكية في علم الاجتماع وبخاصة علم الاجتماع الأمريكي من النصف الأول من القرن العشرين، يعرفها "تالكوت بارسونز" من خلال ضبطه للحدود بين الطفولة والمراهقة، فيرى أن هذه الثقافة هي مضادة ومتناقضة مع ثقافة الكهول، ويقوم على فصل عميق بين أدوار الذكور وأدوار الإناث؛ فهي ثقافة مراهقة تعرف على أنها ثقافة لامتسولة، تتميز بالإقبال على ملذات الحياة.

والملاحظ هنا أن أغلب التخصصات في العلوم الاجتماعية التي اعتنت بموضوع الشباب تدرك أهمية ظاهرة تمدد دورة الحياة، وتغير أنساق الإدماج الاقتصادي والاجتماعي في تحديد مفهوم الشباب والمفاهيم المتصلة به، كما تركز على ظاهرة الإقصاء الاجتماعي والتهميش لتفسير العديد من السلوكيات، كالجنوح، والعنف، والتغيرات الثقافية الجديدة التي تبدو تغيرات مضادة ورافضة، أو تعبيرات عن اليأس بالصمت؛ فحين يشعر الشاب أن مجتمع الكهول غامض وبعيد وعدواني، وأنه لا يمكن التواصل معه يصبح الانكفاء على الذات، أو الصمت هو أنجع أشكال الإجابة.⁽⁶⁾

مجال البحث إذن، هو التفكير في البناءات الرمزية، والتعبيرات الثقافية في علاقتها بمعطيات الواقع الاجتماعي، وعلى أساس أن البحث في الثقافة هو بحث في هوية المجتمع كما هي معيشة في تمثلها.

عند البحث في عوامل عديدة، من أهمها: المعيشة، فالثقافة العربية من حيث المحتوى، ومن حيث اللغة لا يمكن الجزم أنها تبدأ كلياً من مرحلة الجاهلية، بل إن جذورها تمتد إلى تلك الحضارات.⁽⁷⁾

وتناقض الثقافتين العربية والغربية هذا موجود، ويحتدم الصراع بينهما في مختلف الجهات، وهو الخطر الذي يواجه الثقافة العربية، وليس الكلام المنفعل ذو الدوافع السياسية عن وجود ثقافات عربية وليس ثقافة عربية واحدة.

⁽⁵⁾ علي ليلة، الثقافة العربية والشباب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2002، ص 68

⁽⁶⁾ Béji (Hélé), Désenchantement national: essai sur la décolonisation, François Maspero, Paris, p. 124

⁽⁷⁾ علي أواميل، سؤال الثقافة العربية في عالم متحول، المركز الثقافي العربي، المغرب، الطبعة الأولى، 2005، ص 101

بمجتمعات وثقافات، وتعمل على تفتيتها، فيكون هناك عولمة من جهة، عولمة المجتمعات المتقدمة المتحكمة في مراكزها وشبكات مصالحها وتواصلها، ومن جهة أخرى تفتيت ثقافي وديني طائفي وعرقي.⁽⁹⁾

مثل هذا الطرح يفضي إلى العديد من الإشكالات، والقراءات ممكنة لواقع عربي هش تمثل فيه فئة الشباب أكثر هشاشة؛ فهو يعيش تجاذبات ثقافية الغلبة فيها للأقوى، لتُطرح بذلك مسألة الهوية بقوة في ظل تأثير التصاعد الإعلامي.

ب- الشباب العربي والهوية: التعايش المهتز

الهوية منظور إليها في الغالب على أنها متجوهرة تكاد تكون مقولة ميتافيزيقية، مما حال دون تمييزات وتكوينات دقيقة، بدءاً بالتمييز بين الهوية والانتماء، وبين الهوية والإحساس بالهوية، ولكن أيضاً بين هويات واقعية، وهويات فانتازمية أو واجهية، وبين هويات مقولة أو ذاتية، وأخرى مفروضة أو إسقاطية⁽¹⁰⁾. فعن أي هوية يمكننا أن نتحدث؟

بما أن الهوية تخشى القطيعة، حماية للإحساس بأنها هي ذاتها، عبر الزمن، فإن جراح الهوية هي جراح الذاكرة أيضاً. يقترب هذا مما رآه "بول ريكور" من أنه "عندما يتعلق الأمر بجرح الذات الوطني... يمكن الحديث عن موضوع حب ضائع. ذلك، أن الخسارة هي ما تضطر الذاكرة المجروحة إلى مواجهته دائماً".⁽¹¹⁾

ما يقال عن أزمة الهوية العربية أو الإسلامية اليوم، لم يكن يقال عندما كانت للعرب قوتهم وكانت حضارتهم في مدها، وثقافتهم مستقرة متوسعة، فكانت هويتهم متأكدة، ينظرون إلى الآخر متعدداً، غير متوجسين منه، معترفين به، قابلين اختلافه، آخذين عنه. شاء التاريخ أن يؤول بهويتهم إلى ما آلت إليه: إلى أن تهتز، في استنفار دائم للدفاع عن ماضٍ ولّى، وفي مواجهة خطر دائم لا يغيب، منه الموضوعي ومنه الوهمي. هشاشتها لم تعد تتحمل نظرة الآخر، أصبحت كذلك المرأة الجميلة التي قال عنها "مونتسكيو" إنها تعرج كلما نظر أحد إليها، وإذا استحضرننا ما قيل سابقاً، فهي هوية مجروحة الذاكرة، فقد موضوع رغبتها وأسس نرجسيتها، وفشلت في تحمل الحداد واستبطانه.

مثل هذا الجدل تحول إلى جدال كبير يلتحم فيه السياسي بالثقافي موضوعه المركزي الانتماء والهوية، جغرافيته الوطن العربي.

⁽⁹⁾ Jean Baudrillard, La société de consommation, Denoël, France, 1970, p 14

⁽¹⁰⁾ الطاهر لبيب، الهوية والعنف، مرجع سابق، ص 11

⁽¹¹⁾ المرجع السابق، ص 13

فعولمة الإعلام هي تسخير للتكنولوجيا لاختزال المسافات، وهي تتطابق بهذا المعنى مع الجزء الأول من تعريفها لدى "إدغار موران" بأنها "اتصال كل الأجزاء الإنسانية وتفتح على العالمية"⁽¹⁴⁾ ويعتبر غدنز "أن للعولمة الإعلامية قدرة على التقليل من مشاعر الانتماء والانتساب إلى مكان محدد".

ويكتمل بنا مفهوم عولمة الإعلام بإضافة مصطلح المستهلك، والملكية من قبل أصحاب الليبرالية الجديدة، ويتناول "جون بودريار" الاستهلاك كنمط من النشاط النسقي ومن الأجوبة الإجمالية التي على أساسها ينبنى كل النظام الثقافي للمجتمع. وعليه، فإن أماكن الاستهلاك عند "بودريار" هي الحياة اليومية التي لا تختزل فقط في مجموع الأفعال، والحركات اليومية، وفي الابتذال والتكرار، بل هي بالأحرى "نظام من التأويل".

يفضي هذا إلى اعتبار الاستهلاك أسطورة، إنها كلام المجتمع المعاصر عن نفسه؛ فهي الطريقة التي بها يتكلم المجتمع ويفكر، إنه مجتمع الاستهلاك. وعليه، فإن العولمة الإعلامية قائمة أساساً على المزيد من التركيز في ملكية وسائل الإعلام وخلق فرص جديدة أمام المستهلكين.

انطلاقاً من هذا المد الإعلامي، والذي شمل الوطن العربي، توفرت أرضية ملائمة على مستوى الوعي الجماعي للأخذ عن الآخر - الأوربي - وامتصاص قيمه ونماذجه الاجتماعية، ثم توارثها من جيل إلى جيل وصولاً إلى الجيل الحالي الذي عمقت العولمة الإعلامية رغبته في الذوبان في خصوصية الآخر، وأسهمت في تغيير علاقاته داخل العائلة.

مثل هذا المشهد في الوطن العربي، كان مماثلاً لما نجده داخل المجتمع التونسي كجزء من هذا الوطن، والذي شمله المشهد الثقافي بشكل مواز مع تغير المشهد الاتصالي في العالم، خاصة وأن سياسة التحديث التي اتبعت من قبل الحكومة آنذاك، وتحديداً من قبل بورقيبة وجهت إلى تقويض المنظومة التقليدية للمجتمع التونسي، التي اعتبرت معرقة لإمكانية تطوره، بالقياس مع نموذج الآخر الأوربي، فقد صرح بورقيبة بتاريخ 8 أبريل 1956 "لا يفوتنا أننا عرب... ومع ذلك، لا يمكننا أن نغفل بأننا نعيش في النصف الثاني من القرن العشرين، وأننا حريصون على المشاركة في مسيرة الحضارة كي نواكب عصرنا". فتحديث تونس هو أحد الثوابت الأساسية في الفترة البورقيبية، واللافت للانتباه أن بورقيبة أراد أن يعطي الشخصية التونسية هوية وطنية، قطرية، متباعدة عن السياق العربي وخاصة المشرقي؛ فقد ارتبطت الشخصية التونسية بمحاولة بناء الوطن وتأكيد الذات الوطنية، ولذلك سترتكز الشخصية في مرحلة الاستقلال على أبعاد متكاملة: الوطني والعربي والإسلامي.⁽¹⁵⁾

⁽¹⁴⁾ Edgar Morin, Une politique de civilisation, Edition seuil, p 108

⁽¹⁵⁾ الطاهر بلخوجة، الحبيب بورقيبة - سيرة زعيم - شهادة على عصر، علامات للطباعة والنشر، تونس، 1999، ص 13

وهي تسند الأولى، فإنها تتعلق بتأثير هذا الانقباض والتفكك على المجتمع بقيمه وعاداته وتقاليده، وخلق هوة شاسعة بين الأجيال، وكثيرا ما يشعر الأولياء بأن أبناءهم مختلفون، ويصاحب ذلك إحساسهم بعدم القدرة على فهم ومواكبة هذا التغيير، إنهم يفاجؤون في كل يوم بأنماط جديدة في السلوك والتعبير، ومواقف غير معهودة أو غير منتظرة، ومن هنا ينتابهم شعور بالقلق أحيانا، وإحساس بالعجز أحيانا أخرى، وقد يلجؤون كسلطة اجتماعية وتربوية، إلى الأحكام الأخلاقية الجاهزة بالطيش، والتهور، والانحلال الأخلاقي، وهي كلها ردود تلقي بالمسؤولية على ثقافة الجيل الجديد المستبطنة للوafd وثقافته الدخيلة؛ لذلك هو الجيل الضائع، أو هو جيل "المعاناة".



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com